الشعر والحشيشة

لأول مرة فى تاريخ الشعر العربى تظهر مادة الحشيشة المخدرة وأصبحت هذه المادة فنا من فنون الشعر، وموضوعا من موضوعاته. فكما كانت الخمر منذ العصر الجاهلى غرضا من أغراض الشعر، أصبحت الحشيشة منذ العصر الأيوبى غرضا كذلك من أغراض الشعر، وكان السبب فى دخول هذه المادة إلى مصر وبلاد الشام هم رجال الصوفية. ولذلك سميت حشيشة الفقراء لأن الصوفية كانوا يسمون أنفسهم بالفقراء.

ويختلف المؤرخون فى اكتشاف هذا المخدر، فبعضهم ينسب اكتشافها إلى فقير صوفى من خراسان يدعى الشيخ حيدرة المتوفى سنة ٦١٨ هجرية، وأن هذه المادة المخدرة كانت وقفا على رفاقه من الصوفية، ولم يشأ أن يذيع سرها فى حياته، وأوصى أن تزرع على قبره بعد وفاته، ثم انتقلت هذه المادة بعد ذلك من خراسان إلى العراق بعد سنة ٦٢٨ هجرية، واشتهر أمرها بين صوفية العراق، ثم نقلها الصوفية إلى الشام ومصر[1].

وفى نسبة الحشيشة إلى حيدرة هذا يقول الشاعر الدمشقى محمد بن على ابن الأعمى مفضلا الحشيشة على الخمر:

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر ... معنبرة خضراء مثل الزبرجد
يعاطيكها ظبى من الترك أغيد ... يميس على غصن من البان أملد
فتحسبها فى كفه إذ يديرها ... كرقم عذار فوق خد مورد
يرنحها أدنى نسيم تنسمت ... فتهفو إلى برد النسيم المردد
وتشدو على أغصانها الورق فى الضحى ... فيطربها سجع الحمام المغرد
وفيها معان ليس فى الخمر مثلها ... فلا تستمع فيها مقال مفند
هى البكر لم تنكح بماء سحابة ... ولا عصرت يوما برجل ولا يد
ولا عبث القسيس يوما بكأنها ... ولا قربوا من دنها كل مقعد
ولا نص فى تحريمها عند مالك ... ولا حد عند الشافعى وأحمد

(١) المقريزى: خطط. ج ٣ ص ٢٠٥ وما بعدها.

ولا أثبت النعمان تنجيس عينها فخذها بحد المشرفي المهند
وكف أكف الهم بالكف واسترح ولا تطرح يوم السرور إلى غد[1]

فالشاعر هنا ينسب الحشيشة إلى حيدرة، ويطلق عليها المدامة كأنها الخمر، ثم يتحدث عن رائحتها وعن لونها، فهى مثل العنبر وخضراء مثل الزبرجد، ويتحدث عن مجلس الحشيشة إذ يدور بها ظبى من الترك والحشيشة فى كفه كأنها العذار فوق الخد المورد، وأن شجرتها تهتز وتتمايل لأخف هبات النسيم، وأن الحمائم تشدو على أغصانها فتطرب الغصون لتغريدها، وأن لها معان ليست فى الخمر إذ لم تخلط بما كما تخلط الخمر، ولم تعصر بالأرجل كما تعصر الخمر، ولم يتخذ القسيس من الحشيشة مادة لعبثه كما يتخذ من الخمر، كما أن المذاهب السنية المعروفة لم تنص على تحريم الحشيشة كما نصت على تحريم الخمر، وأن حد الحشيشة ليس هو السيف كحد الخمر، ويختتم هذه المقطوعة بالدعوة لتناول هذه المادة لطرح الهموم وجلب السرور، ونلاحظ فى هذا البيت الأخير أنه عبر عن تناولها بالكف، فالخمر تؤخذ بالكأس بينما الحشيشة تؤخذ بالكف.

ويقول الشاعر أحمد بن محمد بن رسام فى نسبه الحشيشة أيضا إلى ابن حيدرة:

ومهفهف بادى النفار عهدته لا ألتقيه قط غير معبس
فرأيته بعض الليالى ضاحكا سهل العريكة ريضا فى المجلس
فقضيت منه مآربى وشكرته إذ صار عن بعد التنافر مؤنسى
فأجابنى لا تشكرن خلائقى واشكر شفيعك فهو خمر المفلس
فحشيشة الأفراح تشفع عندنا للعاشقين ببسطها للأنفس
وإذا هممت بصيد ظبى نافر فاجهد بأن يرعى حشيش القنيس
واشكر عصابة حيدر إذ أظهروا لذوى الخلاعة مذهب المتخمس
ودع المعطل للسرور وخلنى من حسن ظن الناس بالمتنمس[2]

فالشاعر هنا يتحدث عما يصيب من يتناول الحشيشة من ضعف فى إرادته. فهو يصبح ريضا سهل العريكة، وأن الحشيشة رخيصة الثمن بحيث سماها الشاعر هنا خمر المفلس.

(١) المقريزى: خطط ج٣ ص ٢٠٥ وما بعدها.
(٢) المقريزى: خطط ج ١ ص ٢٠٦.

وأن جماعة حيدر هم الذين أظهروا هذه المادة، ونلاحظ أن قوله إن عصابة حيدر أظهروا مذهب المتخمس يذكرنا بما يجرى الآن بين العامة واصطلاحهم «خَمِّسْ» أى مشاركة أكثر من واحد فى تدخين السيجارة الواحدة.

ولكن فى كتاب رسالة زهر العريش فى الكلام عن الحشيش[1] لبدر محمد بن بهادر الزركشى أن هذه المادة ظهرت على يد أحمد القلندرى ولذلك سميت «القلندرية» ويقول ابن تيمية إن هذه المادة ظهرت فى أواخر المائة السادسة وأوائل المائة السابعة حين ظهرت دولة التتار ومنها انتقلت إلى بغداد، وهناك رواية أخرى وهى أن هذه المادة إنما عرفت أول ما عرفت بالهند وأن أول من تناولها رجل صوفى كان يسمى «البير رتن» فهو أول من أظهر لأهل الهند أكلها ولم يكونوا يعرفونها قبل ذلك، ثم شاع أمرها فى بلاد الهند، ومنها انتقلت إلى اليمن ثم فشى أمرها إلى أهل فارس، ومنها إلى العراق ومصر سنة ٦٢٨ هـ[2]. ولكن أمر الصوفى الهندى هذا مختلف فيه اختلافا كبيرا جدا، فقد قيل إن هذا الرجل شاهد الرسول عليه السلام وعاش حتى القرن السابع الهجرى مما أدى بالذهبى إلى أن يكذب أمره ويقول عنه إنى أول من كذب بهذا الرجل وأنه شيخ مفتر دجال كذاب قاتله الله تعالى[3].

ومهما يكن من شىء فإن قصة الحسن بن الصباح زعيم الإسماعيلية النزارية واستخدامه هذه المادة المخدرة بين أتباعه وانتقال هذه المادة فى القرن السادس إلى إسماعيلية الشام وورود ذكر هذه المادة فى رسالة القاضى الفاضل بتاريخ سنة ٥٦٩ هـ؛ إذ نعت راشد الدين سنان بأنه زعيم الحشيشية مما يدل على أن بعض الأفراد، أو بعض الطوائف فى فارس وفى الشام قد عرفوا هذا المخدر قبل أن ينتقل إلى مصر، ولعل الصوفية الذين كثر قدومهم إلى مصر فى عهد صلاح الدين، والذين هيأت لهم الدولة سبل الحياة اللينة، وسبل العيش الرغيد فى كنفها هم الذين أدخلوا هذه المادة إلى مصر، وقد اشتهر بستان الكافورى بزراعة هذه المادة حتى عرف البستان بحشيشة الفقراء، وعرفت الحشيشة الكافورية نسبة إلى هذا البستان.

وفى ذلك يقول الشاعر زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر الحنفى:

وخضراء كافورية بات فعلها ... بألبابنا فعل الرحيق المعتق
إذا نفحتنا من شذاها بنفحة ... تدب لنا فى كل عضو ومنطق

(١) نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٤٤٤ مجاميع.
(٢) المقريزى: الخطط ج ٣ ص ٢٠٧.
(٣) ابن شاكر: فوات الوفيات ج ١ ص ١٦١.

غنيت بها عن شرب خمر معتق وبالدلق عن لبس الجديد المزوق[1]

فهو يصفها بأنها خضراء، وأنها كافورية أى منسوبة إلى بستان الكافورى، وأنها تفعل فى الألباب ما يفعله الخمر المعتق، وأن رائحتها تدب فى الأعضاء والمفاصل، وأنه غنى بها عن شرب الخمر، وأنه ليس فى حاجة إلى أن يرتدى أجمل ملابسه لمجلسها بل يستعيض عنها بالدلق.

ولابن الصائغ عدة مقطوعات فى الحشيشة من ذلك قوله:

أعطنى خضراء كافورية يكتب الخمر لها من جندها[2]
أسكرتنا فوق ما تسكرنا وربحنا أنفسا من حدها

ويقول أيضا:

قم عاطنى خضراء كافورية قامت مقام سلاقة الصهباء
يغدو الفقير إذا تناول درهما منها له تيه على الأمراء
وتراه من أقوى الورى فإذا خلا منها عددناه من الضعفاء

ويقول أيضا:

عاطيت من أهوى وقد زارنى كالبدر وافى ليلة البدر
والبحر قد مد على متنه شعاعه جسرا من التبر
خضراء كافورية رنحت أعطافه من شدة السكر
يفعل منها درهم فوق ما تفعل أرطال من الخمر
فراح نشوانا بها غافلا لا يعرف الحلو من المر
قال وقد نال بها أمره وبات مردودا إلى أمر
قتلتنى! قلت: نعم سيدى قتلين بالسكر وبالبحر

فالشاعر هنا جعل مجلس الحشيشة مثل مجلس الخمر، فهو يعاطيها من أحب. ووصفها بأنها خضراء، وأنها كافورية، وأن الدرهم من الحشيش يفعل أكثر مما يفعله أرطال من الخمر. وأن الذى يتعاطى الحشيش يصبح فى نشوة غافلا عن كل شىء، فلا يميز بين الحلو والمر.

(١) المقريزى: خطط ج ٣ ص ٤٠.
(٢) ابن شاكر: فوات الوفيات ج ١ ص ١٦٣.

ويقول الشاعر نور الدين أبو الحسن الينبعى أحد شعراء الصوفية:

رب ليل قطعته ونديمى ... شاهدى وهو مسمعى وسميرى
مجلسى مسجد وشربى من خمـ ... ـراء تزهو بحسن لون نضير
قال لى صاحبى وقد فاح منها ... نشرها مزريا بنشر العبير
أمن المسك قلت ليست من المسـ ... ـك ولكنها من الكافورى[1]

فالشاعر قطع ليلة مع نديمه فى مجلس هو المسجد عنده، وكان شرابه الخضراء، وقد فاح منها نشرها، ثم نسب الحشيشة إلى بستان الكافورى. هكذا أصبحت مادة الحشيشة من موضوعات الشعر، وأخذ الناس يتحدثون عن مدى تحريم هذه المادة، ووضعت بعض الفصول والرسائل فى تحريم الحشيشة، وكما فضل بعض الحشيشة على الخمر، نرى شعراء آخرين يهجون الحشيشة، فمن ذلك قول الشاعر إبراهيم بن سليمان بن حمزة المعروف بجمال الدين بن النجار نقيب أشراف الإسكندرية المتوفى سنة ٦٥١ هجرية:

لحا الله الحشيش وآكليها ... لقد خبثت كما طاب السلاف
كما تسبى كذا تضنى وتشقى ... كما يشقى وغايتها الخراف
وأصغر دائها والداء جم ... بغاء أو جنون أو نشاف[2]

فالشاعر هنا يعدد ما يصيب مدمن الحشيشة، فهو إما ينتهى به الأمر إلى البغاء، أو الجنون، أو إلى مرض عقلى هو جفاف يصيب المخ وكلها أمراض لا شك من الأمراض المستعصية.

ويقول الشاعر الإسعردى فى تفضيله الخمر على الحشيش:

فديتك نور الحق قد لاح فاهتد ... نديمى وكن فى اللهو غير مقلد
أترضى بأن تمسى شبيه بهيمة ... بأكل حشيش يابس غير أرغد
فدع رأى قوم كالدواب ولا تذر ... سوى درة كالكوكب المتوقد
مدام إذا ما لاح للركب نورها ... وقد ضل ليلا عاد بالنور يهتدى
حشيشتهم تكسى المهيب مهانة ... فتلقاه مثل القاتل المتعمد
وتبدو على خديه مثل اخضرارها ... فيضحى بوجه مظلم اللون أربد

(١) المقريزى: خطط ج ٣ ص ٤٢.
(٢) ابن شاكر: فوات الوفيات ج ١ ص ٥.

وتفسد من ذهن النديم خياله ... فينظر مبيضّ الصباح كأسود
وخمرتنا تكسو الذليل مهابة ... وعزا فتلقى دونه كل سيد
وتجلى فتجلى هم كل منادم ... ويروى بها من شربها قلبه الصدى
وتبدو فيبدو سره وتسره ... فيشبهها لونا بخد مورد
وفيها على رغم الحشيش منافع ... فقل في معانيها وصفها وعدد
وفي خيرها للناس كل مضرة ... فحدث بكل السوء عن وصفها الردى
وحقك ما ذاق الحشيش خليفة ... ولا ملك فاق الأنام بسؤدد
ولا جدّ في وصف لها قط شاعر ... بتنميق ألفاظ كألحان معبد
ولم تضرب الأوتار في مجلس لها ... وما ذاك إلا للشراب المورد
أنخضب من غير المدامة راحة ... إذا ما بدت في الكأس تجلى على اليد
بها ينثني المعشوق نشوان مائلا ... بقد كغصن البانة المتأود
يعاطيك راحا مثلها في رضابه ... ومبسمة مثل الحباب المنضد
وبنعم بالوصل الذي كان باخلا ... به ثم ينسى كل ما كان في الغد
أعن مثلها يا صاح بصبر عاقل ... لقد كنت في تركي لها غير مهتد
ولولا فضول الناس ما بت صاحيا ... ولم أستمع فيها مقال المفند
فخذها ولا تسمع مقالة لائم ... وإن حرمت يوما على دين أحمد[1]

فالشاعر الأسعردى يرى أن آكل الحشيشة هو أقرب إلى البهيمة منه إلى أى شيء آخر، وأن الذين يدافعون عنها هم كالدواب، وأن آكلها يكسى مهانة بعد هيبة، ويصبح منظره منظر القتلة السفاكين، فعلى خديه اخضرار، ووجهه مظلم اللون كئيب، وتفسد الذهن والخيال، فيرى الأبيض أسود، وأن الحشيش لم يتناولها ملك من الملوك العظام، ولم يصفها شاعر بما وصف به الخمر، ولم يصحب شربها نغمات الموسيقى، وذلك كله بخلاف الخمر ومجالسها، فالخمر عنده أفضل من هذه الحشيشة، ومن الطريف أن هذا الشاعر نفسه ناقض قصيدته السابقة بقصيدة أخرى فضل فيها الحشيش على الخمر، فهو يقول:

لك الخير لا تسمع كلام المفند ... ودونك في فتياك غير مقلد
سألت عن الخضراء والخمر فاستمع ... مقالة ذي رأى مصيب مسدد
وحقك ما بالخمر بعض صفاتها ... أتشرب جهرا في رباط ومسجد

(١) ابن شاكر: فوات الوفيات ج ٢ ص ١٦٢.

عليك بها خضرا غير مباتع ... بأبيض وورق أو بأحمر عسجد
ولكن على رغم المدام هدية ... تنزه عن بيع بغير التزهد
رياضية يحكى الجنان اخضرارها ... وخمرهم كالمارج المتوقد
مدامهم ينسى المعانى وهذه ... تذكر أسرار الجمال الموحد
هى السر ترقى الروح فيها إلى ذرى ... المعالم فى معراج فهم مجرد
بل الروح حقا لا يحل بربعها ... هموم ولا يحظى بها غير مهتدى
ولا داسها العصار عمدا ودنس ... الدنان بمختوم من القار أسود
ولا تتعب الأبدان عند نزالها ... وفى القيىء إذا تبدو كزق ممدد
ولا تستخف الناس عقلك بينهم ... لعمرى ولا تدعى لديهم بمفسد
وفى طرف المنديل يوما وعاؤها ... ويعتاض عن حمل الزجاجة باليد
وتخلص من إثم وحد ولا ترى ... ذليلا وتنجو من نديم معربد
وتشربها فى العسر واليسر دائما ... ولا تتقى فيها ليالى التعبد
وتأمن كبسات الحماة وكيدهم ... وتسلم من جور الولاة ولا ندى
وتغدو ذكيا فاضلا ذا نباهة ... ظريفا ولا يغشاك فرط تبلد
وتصبح عند الناس غير مبغض ... وتمنح من كل بحسن التودد
وإن ذاقها المعشوق وافاك خلسة ... من الحاسد الواشى على غير موعد
ومن فضلها فى الطب جودة هضمها ... وهيهات يحصى فضلها لمعدد
ولا سيما إن كان فيها منادمى ... غزال كغصن البانة المتأود
ينادم بالشعر اللطيف وتارة ... يغنى فيزرى بالحمام المغرد
يغازلنى سرا بعينى غزالة ... ويبسم عن ثغر كدرّ منضد
فلا تستمع فيها مقالة عازل ... يصدك عنها واعص كل مفند[1]

ومن كثرة إقبال المصريين على تناول هذه المادة المخدرة بعد أن انتقلت إليهم عن طريق الصوفية، أمر السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب أن يمنع الحشيشة فى البستان الكافورى، وذات يوم دخل البستان فرأى فيه منها شيئا كثيرا، فأمر بأن يجمع، وأن يحرق، فقال أحد الشعراء فى هذه الواقعة، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وستمائة للهجرة:

(١) ابن شاكر: فوات الوفيات ج ٢.

صرف الزمان وحادث المقدور ... تركا نكير الخطب غير نكير
ما سالما حيا ولا ميتا ولا ... طودا سمما بل دكدكا بالطور
لهفى وهل يجدى التلهف فى ردى ... طرب الغنى وأنس كل فقير
أخت المذلة لارتكاب محرم ... قطب السرور بأيسر الميسور
جمعت محاسن ما اجتمعن لغيرها ... من كل شىء كان فى المعمور
منها طعام والشراب كلاهما ... والبقل والريحان وقت حضور
هى روضة إن شئتها ورياضة ... يغنى بها عن روضة وخمور
ما فى المدامة كلها منها سوى ... إثم المدام وصحبة المخمور
كلا ونكهة خمرة هى شاهد ... عدل على حد وجلد ظهور
آسفا لدهر غالها ولربما ... ظل الكريم بذلة المأسور
جمعت له الأشهاد كرما أخضرا ... كعروسة تجلى بخضر حرير
زفوا لها نارا فخلنا جنة ... برزت لنا قد زوجت بالنور
ثم اكتست منها غلالة صفرة ... فى حضرة مقرونة بزفير
فكأنها لهب اللظى فى خضرة ... منها وطرف رمادها المنثور
جارى النضار على مذاب زمرد ... تركا فتيت المسك فى الكافورى
لله درك حية أو ميتة ... من منظر بهج غير نظير
أوذيت غير ذميمة فسقى الحيا ... تربا تضمن منك ذوب عبير
عندى لذكرك ما بقيت مخلدا ... سح الدموع ونفثة المصدور[1]

إذن أصبحت مادة الحشيشة المخدرة من موضوعات الشعر المصرى منذ العصر الأيوبى، وأصبح شأنها فى الأدب شأن الخمر التى عرفت فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى، وكما أن الصوفية جاءوا بآراء جديدة وتعاليم جديدة كانت من مواد الشعر، كذلك جاءوا بالحشيشة وقالوا فيها شعرا، ولكن الأوصاف التى وصفت بها الحشيشة كانت محدودة ضيقة، ولم يستطع الشعراء أن يصفوا مجالس الحشيشة ويطنبوا فى وصفها كما فعلوا مع مجالس الخمر، بل أخذ شعراء الحشيشة مجالس الخمر وأطلقوها على مجالس الحشيشة

(١) المقريزى: خطط ج ٣ ص ٤٠.

بحيث لا نستطيع أن نفرق بين مجالس الخمر ومجالس الحشيشة فى هذه الأشعار التى وصلتنا، ولعل السبب فى ذلك أن الموضوع كان جديدا، وأن المادة نفسها لم تكن منتشرة إلا بين الصوفية أو بين عدد قليل من الناس. لهذا لم يفسح للشعراء المجال فى أن يتحدثوا عنها كما تحدث الشعراء عن الخمر. ومهما يكن من شىء فإن هذا العصر الأيوبى جاء بفن جديد من فنون الشعر وهو «فن الحشيشيات» إن صح هذا التعبير، وسنرى فى عصر المماليك تطور هذا الفن وذيوعه، وكثرة الشعراء الذين تحدثوا عنه كما تعددت صفات الحشيشة وأثرها فى النفس.